المتظاهرين بالكفر والزندقة وقلة الدين ادعاء في نفوسهم انهم من اهل هذا العصر الجديد الذي يفتخر بالتخلص من ربقة الدين ويزأ بالسنن الدينية والطاعات والقربات ليسوا هذا الثوب بعد ان تحققوا بنفوسهم ورأوا بابصارهم الرصاصة معلقة بالثوب لأنها بقيت اياماً عديدة على هذه الحالة وقد حفظها رئيس الرسالة سابقاً في موضع خصوصي

هذا ولو اردتُ ان اورد جميع الآيات والاعاجيب والخوارق التي وقعت في البلاد بواسطة هذا الثوب لقلتُ قول القديس يوحنا البشير ناقلاً الكلام عن مريم: "واشياء أُخر كثيرة صنعتها مريم العذراء لو انها كُتبت واحدةً واحدةً لما ظننتُ ان العالم نفسهُ يسع الصحف المكتوبة» «فمن استطاع ان يفهم فليفهم» والسلام على من رأى الحقَّ فاهتدى

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٢ سُكنى لبنان في قديم الزمان

انَّ لبنان من احفل ولايات الدولة العليَّة بالسكَّان فان معدَّل أهليه يبلغ ٦١ نفساً في كل كيلو متر مربَّع. وهو لعمري عددٌ بليغ لا تتجاوزه الَّا ولاية دار السلطنة وجزيرة ساموس. فانَّ معدَّل قاطني الولاية الاولى هو ١٦٢ شخصاً في كل كيلو متر مربَّع اما ساموس فاهلها ١١٣ نفساً في الكيلو متر. الَّا انهُ لا يجوز المقابلة بينهما وبين لبنان لانَّ ولاية دار السعادة تشمل الاستانة العليَّة وهي كما لا يخفى من حواضر المدن واكثرها سكناً فيزداد بعدد اهلها معدَّل اهل الولاية التي هي داخلة فيها. وكذلك ساموس فانَّها جزيرة كثيرة الخيرات حسنة التربة ليس فيها جبال عالية فلا عجب اذا تقاطر اليها الناس ليستوطنوها. اما لبنان فعبارة عن سلسلة جبال عالية كثيرة الصخور قليلة الخصب ومع ذلك ترى مصانعهُ وقراهُ متقاربة كثيرة الاهلين بحيث يصحُّ القول انهُ لا يوجد في قطر آخر جبل يربو عدد سكَّانهِ على سكَّان لبنان

على انّ الامر لم يكن كذلك في سالف القرون فانّ لبنان طالما كان قفرًا مقفرًا لا يأوي اليهِ الّا كواسر الوحوش ولبيان ذلك ها نحن نبحث في هذا الشأن لنرى كيف احتلّ لبنانَ سكّانهُ اوّلًا قبل عهد النصرانيّة ثم ثانيًا في زمن الرومان واخيرًا منذ دخول الموارنة فيهِ وهي اطوار ثلاثة توافق احوال هذا الجبل الثلاث من حيث السكن فنست الاهلون الى ان بلغ عددهم الى ما نراه اليوم

*

اعلم انهُ ممّا لا يختلف فيهِ اثنان ان جبل لبنان كان في الاعصار الغابرة قليل السكن ولا غرو فانّ وَضع هذا الجبل وهيئتهُ واحوالهُ الطبيعيّة والجغرافيّة ممّا يمنع عن توارد السكّان اليهِ. فانّ مشارفهُ العليا صرودٌ لا يمكن سكناها لبردها. ليس فقط في فصل الشتاء لكن ايضًا في بقيّة السنة. وهي المنطقة التي تعلو فوق ١٨٠٠ متر من سطح البحر. فان القسم الواقع فوق هذا الخط يُعرف بالجرود لانّ ارضهُ جرداء كثيرة الصخور لا ينبت فيها الزرع الّا ضاويًا وبعد عناء ومشقّة. وتزيد على ذلك انّ لبنان كلّهُ لم يقم قطّ بمعاش اهلهِ لاسيّما في عهدنا مع تزاحم السكّان فيهِ. وليس هذا ناجمًا عن تغافل اللبنانيين وتكاسلهم لانّ كل الكتبة لسان واحد على عنّة قطان هذا الجبل وملازمتهم العمل ومواظبتهم على الفلاحة. وفي جانب آخر ليس للبنان مناجم معدنيّة يمكنهم الارتزاق برافقها تعويضًا عمّا ينقصهم من الغلّات. وكذلك ترى اسباب التجارة قليلة في لبنان لا يُعبأ بها لانّ الطرق التجاريّة لا تخترقهُ فتغنيهِ قوافل التاجرين. بل الاحرى ان يُقال انّ جبالهُ كسدٌ قائم في وجه الامم الواقعة على عِطفَيه فترى بينهما فرقًا كبيرًا من حيث الهواء والنبات وكلاهما يختلف في وجهي لبنان. واذا استقريت التاريخ وجدت سياسة شعوبهما متباينة يعيش كلُّ شعب على حدةٍ معتزلًا عن الآخر مع كونهم ينتمون كلُّهم الى عنصر واحد

وممّا يشهد على صعوبة السكنى في لبنان انك لا تجد في خلال جبالهِ سوى مسالك حرجة وشعاب ضيّقة لا تُقطع الّا بالجهد الجهيد. امّا السُّبل التجاريّة اللاحبة التي كانت القوافل تسلكها فانّما كانت تمرّ شماليَّ لبنان وجنوبيَّهُ فتعطف في وادي النهر الكبير او تجاري سيرَ نهر الليطانيّ والطريق الاولى هي التي اغنت طرابلس في الزمن القديم امّا الثانية فكانت مجلبةً لثروة صور العظمى. وبعكس ذلك لم تُصب بيروت

مقاماً كبيرًا في التجارة اذ كان يفصل بينها وبين دمشق والبلاد الداخليَّة ساسلتان من الجبال المرتفعة الى ان فُتحت طريق الشام قبل سنين قليلة ثمَّ أُنشئت السكَّة الحديديَّة فانتصر الانسان بكدّ جبينهِ على ما اقامتهُ الطبيعة في وجههِ من العراقيل والعوائق

هذا واذا تصفَّحنا اقدم ما سطَّرهُ المؤرخون عن لبنان وجدناهم يصفون هذا الجبل مغشًّى بغابات كثيفة. ويوافق هذا الوصف ما ورد في الاسفار المقدَّسة واقدم الآثار الاشوريَّة. وقد دامت هذه الحالة قرونًا متواترة كما يشهد على ذلك مؤرخو اليونان والرومان الذين اثبتنا نصوصهم مرارًا في المشرق في مطاوي كلامنا عن الارز (٩: ١٣٠) وفي المقابلة بين لبنان وجبال الالب (١: ٧٢١). ومن عجيب الامور انَّ هؤلاء الكتبة لا يذكرون البتَّة شيئًا من قرى لبنان وانَّما يعدّون فقط المدن الفينيقيَّة الواقعة على ساحل البحر. نعم انَّ بعض المستشرقين استشفُّوا من وراء اسم « اميا » الوارد في مراسلات تلّ العمارنة (المشرق ٣: ٧٨٩) قريةً « اميون » الَّا انَّ الامر ليس بمقرَّر فضلًا عن ان اميون واقعة في سهل منبسط طيب التربة قليل الارتفاع وليست هي في وسط لبنان

واوَّل ما ورد من اسماء الدساكر اللبنانيَّة في اساطير المؤرخين انَّما جاء في جغرافيَّة اسطرابون اعني قبل تاريخ الميلاد بزمن قليل بعد ان فتح پُمپيوس بلاد الشام. ألا وهي اسماء ثلاثة حصون او تل بالاحرى ثلاثة عشرش للصوص تدعى جيغرتا وسنّان وبرومة (المشرق ٢: ٥٠٧) ومواقع اخرى مثلها اكثرها قريب من البحر. وممَّا يستدلُّ من مجرَّد ذكر هذه الحصون انَّ سكنى الجبل كانت محفوفةً بالاخطار لا يتوطَّنهُ الَّا قليل من السكَّان. وسنعود الى ذكر هؤلاء اللصوص عند كلامنا عن الايتوريين وهم قوم من عرب حوران امتزجوا بالعنصر اللبناني

امَّا الكتابات القديمة فهي عزيزة جدًّا في لبنان وكلُّ ما وجد منها لا يتجاوز اوائل التأريخ المسيحيّ وقد اكتُشف معظمُها قريبًا من الساحل ليس بعيدًا من جُبيل وبيروت وهذا دليل واضح على قلَّة سكَّان لبنان قبل المسيح. ولنا ايضًا على قولنا برهان آخر في ما نراه من الاخربة القديمة في لبنان فانَّك قلَّما تجد بينها من الآثار السابقة لعهد النصرانيَّة وكذلك النقوش المحفورة على الصخور فهي كلُّها من عهد الرومان اللهمَّ الَّا نقوش وادي بريسا قرب الهرمل (وسيأتي ذكرها)

ومع كلّ هذه الشواهد اننا نرجّح كون لبنان لم يخلُ من بعض المراكز الاهليَّة

كان موقعها في وسط الجبل اتخذها الاقدمون في بعض الوديان والبطائح الحسنة التربة الكثيرة المياه السهلة الزراعة (١. وكذلك كنت ترى في خلال الغابات منازل للحطّابين كانوا يعدّون فيها الخشب لاسيّما الارز الذي كان القدماء يقبلون عليه لتجهيز مبانيهم ومنهُ كان الفينقيّون يعمّرون سفنهم واساطيلهم (٢. ولعلّ بعض القرى التي تُعدّ من اقدم دساكر لبنان كاهدن وبشرّاي ابتدأت على هذه الصورة فكانت في اوّل امرها كمصانع لتحطيب الارز وغيره من الاشجار الجبليّة العظمى. وقد اوردنا في ما مرّ كتابات يونانيّة وُجدت في اهدن ترتقي الى التاريخ المسيحي ومنها يجوز القول بانّ القرية سبقت عهد النصرانيّة. اما بشرّاي فانّ اشتقاق اسمها على رأي البعض من اسم الالهة عشتار دليل كافٍ على قدمها

ومن القرى التي ترجّح قدمها الدورمل الواقعة على منعطف لبنان الشرقيّ. ولا غرو فانّ موقعها في بطحاء مخصبة غزيرة المياه ممّا يستدعي الى استعمارها وبقربها وُجدت صفيحتان فيهما كتابات اشوريّة قديمة تشير اليها قريبًا

ومن الامكنة التي تركها الناس في غابر الاعصار بعض المقامات التي اتخذها الاهلون كنائس دينيّة منها اليشوعة وقمرا ودير القامة ومشنقة. فانّ هذه المحلّات وان لم يرد ذكرها قبل ايّام الرومان فانّ اصلها فينيقيّ محضٌ لا محالة

وعلى هذه الصورة اضحى لبنان شيئًا فشيئًا معدًّا للسكن. فانّ الاهلين ضربوا اطنابهم اوّلًا قريبًا من المدن الساحليّة وفوق رُبًى لا يتجاوز علوُّها من ٤٠٠ متر الى الف متر حيث الهواء لطيف والرزق مضمون. ثمّ اخذ لبنان يُجرَّد من احراجه الكثيفة الدغلة لمتاجرة الاهلين بخشبها فصار الناس يفلحون الاراضي التي نُزعت عنها الادغال ويشيّدون المباني للسكن وكان ذوو الثروة من اهل الساحل يتوقّلون في فصل القيظ مشارف لبنان ترويحًا للنفس وطلبًا للراحة بعد ما تجشّموه من الاسفار الشاقّة

*

فاخذ من ثمّ القطين يتوغّلون في لبنان فازداد عددهم ونموا خصوصًا بعد الفتح الرومانيّ. وقد اسلفنا فوصفنا ما نجم عن دخول الرومان في سوريّة من المنافع الجمّة

١) وممّا زُرع فيها الجفنة فان هوشع النبيّ ذكر في كتابه (١٤: ٨) خمر لبنان واطراهُ

٢) راجع ما سبق لنا في المشرق في هذا الخصوص

(المشرق ٢: ٢١٤ و ٣١٤ و ٤٣٧) فانَّ تملُّكهم رفع بها الى اعلى مقامات العمران والتقدُّم. فهم الذين قصُّوا اجنحة الفنّ ومدُّوا أروقة السلام فوق كل الاهلين على اختلاف اجناسهم. ومن اعمالهم المشكورة انهم استأصلوا شأفة اللصوص الذين كانوا تحصَّنوا في لبنان فدكُّوا معاقلهم واعادوا الأمن الى السكَّان (المشرق ٥: ١٠٩). فراجت اسواق التجارة واضحت المدن الساحليَّة محطًّا للقوافل ومركزًا للمعاملات لاسيَّما جبيل وبيروت وصور فانتشرت منها هذه الحركة الى ضواحي لبنان المجاورة لها. وممَّا زاد في خصب الجبل ما ابتناهُ الرومان من القنيّ لجلب مياه لبنان من عيونها فكان ذلك من ادعى الوسائل لنشر الحضارة وتلطيف الهواء في مدن الساحل. ومنها ايضًا السكك الرومانيَّة التي كانت تستدير سائرةً حول لبنان. واحدى هذه السكك كانت تخترق الجبل في عرضه سائرةً الى جنوب العاقورة ومنها الى بعلبك (المشرق ٢: ٣١٤). ولمَّا كان لبنان لم يزل بعدُ مزدانًا بغاباته سعى الرومان باستثمارها ووضعوا لذلك قوانين مملوءةً حكمة اشرنا اليها سابقًا

ولا عجب اذا رأينا لبنان في ايَّام الدولة الرومانيَّة تغيَّرت احوالهُ وترقَّت شؤونهُ والى ذلك العهد تنتمي عدَّة كتابات منها يُستدلُّ على وجود قرى وضياع او بالاحرى مزارع ودساكر. ومن غريب امر هذه الكتابات انَّها لا تحتوي علمًا لمكان واقعٍ في قلب لبنان. ومجمل ما تتضمَّنهُ اعلامٌ شخصيَّة فقط

وفي ذلك العهد استبدل الرومان المعابد الفينيقيَّة الصغرى بهياكل فخمة يديرها عدد غفير من السَّدنة وارباب الدين فكان يتقاطر اليها الزوَّار زرافاتٍ ومنهم من كانوا يختارون تلك الامكنة لسكناهم فأُنشئت عدَّة قرًى حول هذه المقامات الدينيَّة. وكان لهذه الهياكل اوزاقها وغاباتها المقدَّسة وارقافها وكرومها. ومعلومٌ انَّهُ لا نُدحة للقيام بكل هذه الاملاك من عملة وفلَّاحين يستثمرونها(١. فلا غرو ان ضيعًا كثيرة ظهرت على هذه الطريقة الى حيز الوجود نخصُّ منها بالذكر قرية دير القلعة التي كان يحجُّ الى هيكلها اهل بيروت ويقضي فيها مستعمرو الرومان فصل الصيف

والى هذا الزمان ننسب ما اكتُشف في امكنة عديدة من الآثار الزراعيَّة وادوات الفلاحة كالمعاصر والاجران والرحيّ الضخمة (المشرق ٥: ١٠٧) والنواويس ومدافن لا

١) راجع القاموس الماديَّات اليونانيَّة والرومانيَّة لساغليو (Saglio) ك ١ ص ١٥٠١

يُستقصى عددها منقودة في الصخور وكان الرومان كانتين بغرس الكروم فبعثوا همّة الاهلين على فلاحتها فما عتّمت صنوف الخمر اللبنانيّة ان اشتهرت في العالم الرومانيّ فعُرفت بالخمور البيروتيّة (راجع بلينيوس ك ١٤ ع ٩,٧ و ك ١٥ ع ١٨,١٧) . ومن ادلّة الزراعة انّك ترى بين اليمّونة وبعلبك كتابات عديدة تحدّ الاملاك وتفرز بينها . وفي امكنة اخرى كتابات غيرها منها لاتينيّة ومنها يونانيّة يُستفاد منها تعدّد السكّان وتوفّر المنازل . وهذه الكتابات قد اثبتناها في مقالاتنا في مطاوي كلامنا عن كل محلّ بمفرده فلتُراجع . ولدينا غيرها ايضاً سنثبتها ان شاء الله عند بحثنا عن القرى الواقعة في المنعطف الشرقيّ من لبنان حيث نشأت قرى عامرة بعضها في جوار بعلبك وبعضها في ضواحي زحلة كفرزل ونيحا وجديتا . وممّا يجدر بنا ذكرهُ انّ كلّ هذه الكتابات والعاديات لا تتجاوز القسم المتوسط من لبنان اعني الى نحو ١٠٠٠ متر من سطح البحر وفي ذلك دليل على انّ القسم الاعلى لم يُتّخذ بعد للسكنى وانّما كانت الغابات تكلّلهُ كما في القرون السالفة

*

وفي اثناء ذلك ظهرت النصرانيّة ففتح ظهورها باباً جديداً للتمدّن والحضارة في لبنان . فانّ المستعمرات الرهبانيّة التي ذكرناها سابقاً (المشرق ٤ : ٢٦٣) اتّخذت لبنان منزلاً لاعمالها النسكيّة وقد اختارت لذلك اقفر ما وجدتهُ من الاودية فصار النسّاك يُجيلون فيها يد الحراثة . حتى اضحت هذه المناسك بعد قليل مراكز لضياع عديدة كما جرى في اوربّة حيث ترى مدناً كثيرة كانت في اوّل امرها ديورة للرهبان أوى اليها القوم فصارت مع تمادي الايّام بلاداً واسعة

ولكن لا يسعنا السكوت عن امر يذهلنا ايّ انذهال وهو قلّة الآثار النصرانيّة في لبنان قبل القرن السابع فانك لا تكاد تجد اثراً واحداً منها يمكن نسبتهُ الى النصارى بلا ريب مع كثرة العاديّات الوثنيّة الموجودة في انحاء الجبل . وكذلك ترى من الكتابات اليونانيّة واللاتينيّة قسماً صالحاً وهي كلّها لعبدة الاصنام اللهمّ الّا خمس او ستّ منها باليونانيّة . فيا ليت شعري ما السبب في ذلك . أليس هذا دليلاً على ما لاقتهُ النصرانيّة في سبيلها من العراقيل لمّا حاولت ان تنشر تعاليم الخلاص بين اهل لبنان . ولنا في تعليل ذلك سبب آخر وهو انّ الغزو الاخير الذي نالهُ الدين النصراني في لبنان انّما كان

على يد قوم من الاراميين ليس من اليونان ولذلك لا تجد من الكتابات اليونانيّة النصرانيّة الّا النزر القليل

فان تخطّينا الآن الى ذكر تاريخ لبنان في القرن السابع وجدنا هذا الجبل قد دخل في طور جديد بظهور المرَدة والموارنة الذين لعبوا دورًا مهمًّا في طوارئه المختلفة. وكان قبلهم لم يُفلَح منهُ الّا ساحلهُ ووسطهُ بعد تجرّدها من غاباتها امّا لبنان الاعلى والجرد منهُ فانهُ لم يزل قفرًا خاليًا من السكّان حتى أوى اليهِ الموارنة فاضحى معمورًا حافلًا بالقطين كبقيّة نواحي لبنان. وسنبيّن ان شاء الله قريبًا كيف تركّبت الامّة المارونيّة الّا اننا نقدّم على هذا البحث فصلًا آخر في شعوب لبنان القديمة وسكّانهِ الاوّلين

(ستأتي البقيّة)

مآثر العراقيين ودواثر البابليين السابقين

لجناب الدكتور الفاضل نابليون ماربي البغداديّ

(المشرق) هذه المقالة كملحق لما كتبهُ حضرة الدكتور البارع في المشرق العام الماضي تحت عنوان « ما ورثهُ اهل العراق عن الاشوريين والكلدانيين » (المشرق ٤ : ٩٢٨ ; ٩٨٦ ; ١٠١٧ ; ١٠٧٢)

لو نُشرَ البابليون من قبورهم وتأمّلوا ما هم عليهِ اليوم خلفاؤهم العراقيّون من العوائد والصنائع والفنون الخ. لقالوا « من أشبه اباه فما ظلم وما انتم أيها الاحياء الّا ابناؤنا ولذا يحقّ لنا تلك البلاد عملًا بالسُنّة العامّة ان الاشياء تُتبع من الوكيل اذا عاد الاصيل ». فممّا أشبه بهِ المتأخرون الاقدمين الاضرار اي تعدُّد الزوجات فقد كان الاشوريون والبابليون جارين على هذه العادة وفقًا لشريعتهم وهي اليوم سنّة اهل العراق اللهمّ الّا النصارى منهم

وكان يحقّ على الوالد في ذلك الزمان عند تزويجهِ بنتهُ ان يجهّزها باثاث البيت والحوائج الخ. وفي متحف لوفر الفرنسي عاديّة مشهورة باسم حجر الموسيو ميشو فيها مسطور ما اعطاه والدٌ لابنتهِ من الجهاز والظاهر انهُ كان من الواجب على العروس ان تأخذ معها سند جهازها مختومًا بيد والدها كي لا ينكر عليها زوجها ما حملتهُ اليهِ من الاثاث والفرش (١

(١) راجع تاريخ لونرمان Lenormant : *Histoire ancienne des peuples de l'Orient*. T. V, pp. 84 et 98.